طقوس وعادات التراث الشعبي المصري
خلال الفترة المعاصرة
Egyptian folklore rituals and mores during the contemporary period

ربيع عوادي (*)[1]
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
ra.aouadi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 02 /2022/03 تاريخ القبول: 20 /2022/04 تاريخ النشر: 2022/04/26

ملخص:

يشكل التراث الشعبي بفروعه المختلفة وحدة ثقافية متكاملة شكلها الانسان عبر تاريخه الطويل جيلا بعد جيل وتعكس فلسفة حياته ونظرته إلى الوجود. والعادات الشعبية سلوك عام يمارسه المجتمع جماعات وأفراد لحاجة أمنية أو صحية أو تربوية أو ترفيهية، وبتأثير أفكار معرفية أو اعتقادية أو كليهما معا في كثير من العادات.

تهتم هذه الدراسة برصد الطقوس والعادات الشعبية المتعلقة بدورة الحياة بأبعادها التاريخية والاجتماعية، غير أننا سنركز على الطقوس والعادات المرتبطة بالزواج والوفاة انطلاقا من مشاهدات الرحالة المغاربة الذين زاروا مصر خلال الفترة المعاصرة، حيث يقف الرحالة على تفاصيل كل مرحلة على أساس أنها تقود لما بعدها فالخطبة هي الطريق المؤدي للزواج، والرموز الاقتصادية المرتبطة بالزواج تتمثل في المهر، ويدخل في هذا الاطار ليلة الدخلة وانتقال الفتاة من عالم العذرية إلى عالم النساء.

وتعرض الدراسة كذلك للمرحلة الأخيرة من دورة الحياة، بتناول طقوس الوفاة من حيث علامات الموت وإعلان الوفاة والاستعداد للدفن، ثم الجنازة والمقابر والدفن والعزاء، ومناسبات زيارة القبور.

1- (*) المؤلف المرسل: ربيع عوادي: ra.aouadi@gmail.com

وفي الأخير التطرق للاحتفالات المصاحبة للأعياد القومية مثل وفاء النيل أو شم النسيم، فضلا عن طقوس الترويح عن النفس بالحدائق والمتنزهات.

الكلمات الدالة: الرحالة المغاربة، التراث الشعبي، عادات الزواج، طقوس الوفاة.

Abstract:

The folklore, with its various branches, constitutes an integrated cultural unit formed by human throughout his long history, generation after generation, that reflects his life philosophy and his outlook on existence.

Folk habits are a general behavior practiced by society groups and individuals for a security, health, educational or entertainment need, and by the influence of cognitive or belief ideas, or both, in many habits.

This study is concerned with monitoring the popular rituals and habits related to the life cycle in its historical and social dimensions. However, we will focus on the rituals and habits associated with marriage and death based on the observations of Moroccan travelers who visited Egypt during the contemporary period, where the travelers focus on the details of each stage on the basis that it leads to what comes after, such as engagement which is the road leading to marriage, and the economic associated with marriage represented by the dowry, includes as well the wedding night and the transition of the girl from the world of virginity to the world of women.

The study also presents the last stage of the life cycle, by dealing with death rituals in terms of signs of death, announcing death, preparing for burial, then funerals, cemeteries, burials, condolences, and the occasions of visiting graves.

Finally portraying holidays and celebrations associated with national holidays, such as the fulfillment of the Nile or Sham El-Nessim, as well as the rituals of recreation in gardens and parks.

Keywords: Moroccan travelers, folklore, marriage habits, death rituals.

1. مقدمة:

يزخر التراث الشعبي بالمعارف والأفكار والخبرات التي ترجع بدايات كثير منها إلى آلاف السنين مثل خبرات الفلاحة والصيد وعادات الزواج ومعتقدات الموت والولادة وغيرها، وفي هذا الارث الثقافي يصعب الفصل بين ما هو معرفي أو عقدي أو أدبي أو عادة وبين ما هو مادي، فالتراث الشعبي كل واحد متكامل لا مجال لبتر البعض منه[1].

تستهدف الدراسة رسم معالم الدور الذي تلعبه العادات والتقاليد في المحافظة على وحدة المجتمع وتماسكه والعلاقة الوظيفية بين هذا الجزء من التراث وبين ثقافة المجتمع ككل، وما يرتبط بعادات الزواج والوفاة من عناصر مادية لها دلالتها الوظيفية.

ويتناول البحث عادات وتقاليد الزواج والوفاة في مصر انطلاقا من مشاهدات وملاحظات الرحالة المغاربة الذين زاروا مصر في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، بداية بالنظرة إلى الزواج وأهميته وسن الزواج والخطوبة والمهر، والعرس وموكب العريس وتزيين العروس، وحضور المدعوين والضيوف، وليلة الدخلة وعادة ختان البنات.

وتنتهي الدراسة بالدورة الأخيرة لحياة الانسان وهي عادات الموت التي تبدأ بالاستعدادات المادية والروحية بعد إعلان الوفاة، وسلوك المحيطين به إلى جانب كيفية تجهيزه والمعتقدات المرتبطة بذلك، كما تناولت عملية الدفن في مقابر فردية أو جماعية، مع ما يتبع ذلك من نحيب وعويل النساء ومشاركتهم في الجنائز، كما تناولت العزاء وواجباته سواء من الحاضرين أو عائلة المتوفى، والطعام والشراب المقدم للمعزين، وتنتهي الدراسة بتناول عادات وطقوس الاحتفالات المصاحبة للأعياد والتنزه بالحدائق.

انصب اهتمام الرحالة المغربي على منابع القوة في العادات ومظاهرها المختلفة، بأسلوب مشوب بصفات الانبهار ولحظات الإعجاب، في حين حظيت بعض مظاهر الحياة اليومية بالنقد اللاذع حينا والمستهجن حينا آخر.

فكثير من الرحالة المغاربة الذين زاروا مصر سواء بدافع سياحي أوعلمي محض، أو من مروا عبر ترابها في طريقهم إلى الحجاز لأداء مناسك الحج، قد تحلوا بالدأب وحب الاطلاع والشعور بالمسؤولية في سبيل سرد بعض جوانب التراث الشعبي بين ثنايا رحلاتهم.

وكل ما ذكروه من معارف حول التراث الشعبي يتباين مقداره من واحد إلى آخر حسب اجتهاده، دافعهم الأول شغفهم بالتراث الشعبي وإدراكهم لأهميته التاريخية والعلمية والاجتماعية.

وفي كثير من الأحيان يتاح للرحالة فرصة معايشة الناس لفترة طويلة فيتشبع بمفردات التراث الشعبي ويدرك كثيرا من جزيئياتها ويتعرف الرواة، وغالبا ما ينتبه إلى مواضيع وأحداث تقع أمامه أو يسمع عنها فينهمك في تدوينها[2].

2. عادات وطقوس الزواج

إن عادات الزواج هي مجموعة الممارسات والأنماط السلوكية التي تحدد صورة العلاقة بين شخصين بالغين يؤلفان الأسرة، وهي أيضا طقوس وممارسات تختلف باختلاف المجتمعات والثقافات.

ظلت عادات التراث الشعبي المرتبطة بالزواج لصيقة بالطقوس المتوارثة منذ عدة أجيال، وهو ما يعكس النمط الثقافي السائد بالمجتمع المصري، حيث تتداخل مجموعة من العناصر والعوامل المؤثرة لإتمام الزيجات، بدءا بأسلوب الاختيار في الزواج بالاعتماد على وسيط الزواج أو العلاقة القرابية أو أسلوب يجمع بينهما، ثم دور العوامل الشخصية والقدرات الخاصة في تحديد ذلك، وسن الزواج واختلافه وتغيره نتيجة لتغير قيمة الزواج المبكر[3].

ومن طقوس وعادات الزواج في مصر أن الشخص حينما يريد الزواج سواء أكان عازبا أو مطلقا يعتمد على حديث بعض سيدات العائلة أو غيرهم من اللواتي يصفن له جمال الفتاة، وقد تزوج بهاته الطريقة تاجر غني في خان الخليلي يدعى عبد الله بعدما تخلى عن زوجته ذات الطباع القاسية والصعبة، وقرر الزواج من فتاة تبلغ بالكاد خمس عشرة سنة، وقد تكفلت إحدى السيدات بمهمة الاطلاع على جمال الفتاة عبر استصحابها إلى الحمام العمومي فعلقت بالقول: "كويس كثير ما شاء الله"؛ أي جميلة، وهو ما أعطى إشارة إلى الزوج بالاستمرار في إنجاز الخطوات الموالية.

من عادات النساء الزواج في سن الثانية عشر، وتكون مشورة السيدات لازمة إذا كان سن الفتاة أقل من ذلك، ومن النادر أن تبقى واحدة منهن دون زواج حتى سن السابعة عشر[4].

بعد عملية جس النبض لمعرفة رأي الفتاة يتم التقدم لطلب العروس بصفة رسمية من أحد محارمها وغالبا ما يكون الأب أو الأخ، فقد قام التاجر عبد الله بإرسال صديقين لوالد الفتاة قصد التفاوض معه في شروط المهر، ولما سأل الأب ماذا سيعطي الزوج للعروس أجابه أربعة أكياس بقشيش لك وأربع لابنتك وبكل الرفاهية التي ستصبح لها، فرد الأب بالقبول لكنه في المقابل تخوّف من إمكانية التخلي عن بنته من قبل زوجها، فرد التاجر عبد الله بأنه في هذه الحالة سيمنحها مبلغا شرعيا من المهر[5].

انفرد الرحالان الغيغائي والحيوني في تقديم بعض المعلومات عن عادات وطقوس المصريين في الزواج، حيث تعكس معطياتهم تقاليد خاصة في الاحتفال بالزواج، وهي طقوس تختلف بطبيعة الحال عن احتفالات الزواج عند أهل المغرب، ولعل ذلك راجع للاختلافات السوسيوثقافية بين البلدين، ولا يخفي الرحالان إعجابهما واندهاشهما من هذه العادات نظرا لعدم تعودهما على رؤية مثلها في احتفالات الزواج بالمغرب.

بعد الاتفاق على موعد الزواج يبدأ الاستعداد لإقامة حفلة العرس من طرف عائلة العريس والعروس معا، وتصاحب حفلة العرس عادة احتفالات الزفاف بطقوسها المختلفة والأغاني التي يتم ترديدها[6]، وفي هذا السياق يتحدث الرحالة الحيوني عن عادات المصريين في أفراح الزفاف، فبعد إتمام مراسيم الخطوبة يُشرع في تنظيم العرس بطقوسه وعاداته الشعبية، حيث تروح العروس لبيت زوجها عند العصر، ويصاحبها الأطفال والبنات الصغار يلبسن الملابس الجميلة ويحلين بالذهب وبعضهن تركبن الخيول، فيتقدمن موكب العروس على نغمات الموسيقى التركية، إذ يقول الحيوني: "ويسبقون أمام العروس الذاهبات والراكبات وبين أيديهم طبالين"[7]، وهو ما يؤكد على تأثر طقوس الزواج بمؤثرات خارجية نتيجة الاحتكاك ببعض الثقافات الأجنبية المرتبطة بالنفوذ التركي.

ومن عادات حفلة الزواج بمصر تزيين العروس وارتدائها ملابس جميلة مرصعة بالحلي والجواهر والذهب والعطور استعدادا للزفة والانتقال إلى بيت الزوجية، حيث تمشي تحت محمل من أعواد مثل القبة، فالعروس تسير تحت هودج تسبقه فرقة من الموسيقيين، تصدح بأصوات الآلات الموسيقية وأغنيات العرس، وكذا صيحات الفرح التي تطلقها السيدات اللائي يشكلن في الموكب مسيرة صاخبة مليئة بالحيوية[8].

وقد وصف الحيوني لباس العروس وكيفية صنع وحمل القبة بالقول: "والعروس بينهن بخرقة حمراء من حرير من مفرق رأسها إلى شربلها فلا يظهر منها شيء، وعلى رأسها قبة من حرير أحمر أو أصفر أو أخضر، وكيفيتها يأخذون أربعة عصي خضراء أو صفراء مصبوغين وفوق كل عود قبة من فضة، ويجعلون تلك القبة بين العيدان ويشدونها بينهم، وكل عود يأخذه رجل بيده ويجعلونها فوق رأس العروس"[9].

وتحيط النساء بالعروس وهن يلبسن أفخر الثياب، ويجتهدن في إظهار الحلي الكثيرة الموضوعة فوق عدة أماكن من أجسادهن، ويمشين في الطريق ببطء، ومن وراء الجميع الطبول والمزامير إلى أن يصلوا إلى دار العريس.

وقد استحسن الغيغائي عادة المصريين تزويج بناتهم وهن مراهقات بالكاد يصلن سن البلوغ، بخلاف أهل المغرب الذين يتركون بناتهم يكبرن دون زواج خشية ضياع إرثهم، إذ يقول: "أما أهل المغرب فإنهم يمنعون بناتهم من التزويج حتى يتعنسن، سيما أهل الثروة منهم أو من له أدنى جاه ومال، يترك بنته أو أخته إلى أن تمشط الشيب عن رأسها، فإنهم يظهرون أنهم لم يجدوا لها كفء، وهم في ضمائرهم إنما يخافون على متاعهم بالإرث"[10].

ومن طقوس الزواج بمصر ممارسات فض البكارة وتغيراتها حيث تحدث الرحالة عن الأشخاص الذين يحضرونها وطريقة إتمامها والقائم بعملة الفض، والصباحية وطقوسها وممارساتها وتغيراتها[11]. وقد استنكر الغيغائي على المصريين هاته العادات المرافقة للاحتفال بليلة بالدخلة وترقب عائلة العروس حدوث ذلك بالقول: "فإذا راحت الزوجة إلى الزوج ودخل بها في ذلك الوقت، وهم ينتظرونه يعني أمها وأبوها وأقاربها، ولو كان أبوها فقيها.

وعندهم فعلة شنيعة هناك وهي إذا ضعف الرجل أو استحيى وعجز عن افتضاض العروسة جهز عليها بأصبعه أو بما أمكنه، فهو رجل وإلا فهو امرأة مثلها، ويحصل لأهل الزوجة معزة عظيمة"[12].

ولعل من طقوس إدماج الفتاة في الحياة الزوجية بمصر عادة ختان الفتيات، وهي ممارسات اجتماعية تمهد للدخول في مرحلة البلوغ وضرورية لولوج عالم الزواج، استعجب منها الرحالة الغيغائي وذكر بأنها تنتشر كثيرا بمصر عكس ما يوجد بالمغرب، وختان الفتاة يعتبر من أسس الزواج كما أكد له بعض الطلبة المغاربيين المجاورين بالأزهر والمتزوجين بمصر، بل إن العريس يطلب ختان البنت قبل الزواج بها، فقد ذكر "أن رجلا من جند الترك الذين هم بمصر تزوج من خيار أهل مصر، فراح ودخل عليها ووجدها غير مخفوضة، فأرسل إلى العريفة من ليلته، فما فعل شيئا حتى أخفضتها بين يديه، ودخل بها بعد ذلك، وهذا أمر عجيب"[13].

ولا تكتمل طقوس الزواج إلا من خلال الاحتفالية الكبرى التي يتم تجسيدها عبر إقامة العرس الذي يحضره الضيوف والمدعوين وأفراد عائلة العروسين، وهو بذلك يعتبر الاحتفال الحقيقي للزواج، ويتوج بوليمة في بيت العريس تقدم فيها أشهى المأكولات التي تم تحضيرها خصيصا لإكرام الضيوف، فضلا عن مصاحبة الموسيقى لهذ الاحتفال[14].

كانت العادة عند المصريين أن يدعوا لحضور حفلات الزفاف جميع الأقارب والأهل والأصدقاء، وإذا كانت دعوات الحضور خلال القرن التاسع عشر شفوية تعتمد إيصال رسالة الحضور شخصيا إلى دار المدعو، فإن الدعوة خلال القرن العشرين تطورت كثيرا خصوصا عند النخبة السياسية، فقد دعا المراقب العام بوزارة التعليم السيد إبراهيم زيتون الرحالة أحمد الصبيحي لحضور حفلة عقد قران ابنته قائلا: "ودفع لي كما دفع لمجيبي الدعوة على العادة المصرية زجاجة مختومة على حلواء لطيفة"[15].

3. طقوس وعادات الاحتفالات والنزهات

تتجلى عبر العادات شخصية المجتمع أو الشعب عامة، والتي تعبر عن هويته بسلسلة من المظاهر والممارسات اليومية كعبارات التحية والمجاملة أو الشهرية كأدعية استهلال الشهر القمري أو في أوقات متقطعة كالعادات المتعلقة بالضيافة أو الولادة أو الأعراس أو الختان، أو سنوية كالعادات المتعلقة بشهر رمضان، والأعياد الدينية والمولد النبوي وموسم الحج.

فمجموع العادات والتقاليد والأعراف تشي بطبيعة الشعب وقيمه وأخلاقه وفنونه وآدابه ونظرته إلى نفسه وما يحيط به من شعوب وإلى العالم والكون[16]. وغالبا ما ترتبط هذه العادات ارتباطا وثيقا بمعتقدات شعبية عميقة الجذور عند ممارسيها[17].

اشتهرت الحياة في المدن المصرية خاصة القاهرة والإسكندرية بعادة تنظيم الحفلات الصاخبة والخروج إلى المتنزهات والحدائق بمناسبة أو غير مناسبة، ومن أشهر الحفلات في مصر يوم وفاء النيل لِما له من أهمية في التراث الشعبي للمجتمع المصري، فطقوس الاحتفال بهذا اليوم استمرت في مصر منذ عهود زمنية بعيدة حيث كان الفراعنة يحتفلون به كل سنة، ويرتبط هذا الاحتفال بفيضان نهر النيل إلى مقياس معين يكفي لغمر الأراضي بالمياه، فتقام الاحتفالات طوال هذا اليوم الذي أصبح عيدا قوميا وتراثا شعبيا بمصر.

وقد صادف الغيغائي هذه الاحتفالات وكتب قائلا: "وجدنا أهل مصر في كثير من الفرح والسرور، وكثرة الهنا والنعم والحبور من فيض النيل الفيض الكثير، وعظيم الخصب الغزير، وهم في الأعراس والأفراح والنزهات والانشراح (...)، وملئت الأجنة فرحا وطربا للأعواد والنغمات من الأزبكية إلى بولاق، ليلا ونهارا في الغدوات والعشيات في الأفراح والنغمات"[18].

يؤدي اشتراك وحدات اجتماعية كبيرة في الأفعال وعمليات الترفيه العامة إلى نوع آخر من العادات الاجتماعية الشعبية، والتي تعرف على وجه العموم باسم الأعياد والاحتفالات، وقد تدخل الموسيقى والرقص والأزياء التقليدية الخاصة والمنصات والمواكب كعناصر في الاحتفال بالأعياد التي تركز على التراث الديني والدنيوي على حد سواء، وهناك ألعاب ورياضات ترفيهية معينة ووسائل تمضية الوقت[19].

ومن عادات المصريين أيضا الذهاب إلى أماكن التسلية والنزهة التي تعقد في منطقة الرميلة وسط القاهرة، وقد شبهها الغيغائي بساحة جامع الفنا بمراكش، قبل أن ينقلوا كل ذلك أو جله إلى الأزبكية خارج القاهرة على شط النيل حيث مساكن الأوربيين والحدائق الغناء، وكانت هذه الأماكن تعج بأصحاب الألعاب والفكاهة والموسيقى، وثمة فرسان يبدون في تدارييهم قوة وحيوية وينمون بالدرجة الأولى مهارتهم الحربية عن طريق اللعب بعصي، والمهارة هنا أن يتفادى الفارس عصا غريمه أو يمسكها بيده[20].

وفي هذا الصدد يضيف الغيغائي أن الأزبكية تضم من "أنواع الملاهي كل غريب، ومن أنواع الحروب والفروسية وضرب العيدان والأوتار، وكل ما يلهي وما به أنس ومباهي، وقد تجد نساءهم يجرين بالخيل الحسنة بالأسراج المقومة وأرجلهن إلى جهة واحدة كأنهن عقبان أو شجعان من الفرسان، وبها من كل مضحكة وعجب ونغمة وطرب"[21].

فضلا عن عادات الخروج للحدائق والمتنزهات للاستمتاع بالوقت رفقة الطبيعة والأعشاب ونباتات الزينة التي تحف الحدائق، مع ما يتخللها من أنشطة موازية ونشاط تجاري يوفر مستلزمات النزهة وبعض المأكولات الخفيفة التي تصاحب عادة الخروج للنزهات، وكذا مشاهدة الألعاب المقدمة في فضاء الحدائق لعموم الزوار.

لم يعدم سكان القاهرة وسيلة للترفيه عن أنفسهم إذ كان الخروج إلى المتنزهات إحدى المتنفسات اليومية للهروب من زحمة المدينة واكتظاظ السكان، واستمر خروجهم لحديقة الأزبكية إلى غاية سنة 1904م عندما حل بها الرحالة العلمي ووجدها قد أحيطت بقضبان حديدية، وتم الاعتناء ببركها وبساتينها وأشجارها، وأضاؤوا الأنوار بجنباتها مع الموسيقى الرسمية التي تصدح بها، لذلك فرضوا على الداخلين إليها قدرا من النقود، ورغم ذلك "كل يوم في العشية يأتي الناس إليها ويمرحون في رياضها، لا يُمنع منها أحد إلا من أبى أن يدفع شيئا من النقود"[22].

والظاهر أن عادة خروج المصريين للنزهات والاحتفالات التي يقيمونها جعلت منها تقاليد وعادات اجتماعية ضرورية لكل سكان القطر، وخاصة في المدن الكبرى مثل

الإسكندرية التي يحرص سكانها على تقليد احتفالات سكان القاهرة بالأزبكية في حديقتهم المشهورة باسم المحمودية، وقد قدّم الحسن الغسال في رحلته صورة عن أجواء وعادات الإسكندريين في الخروج للتنزه بالمحمودية قائلا: "وهي عبارة عن حديقة حولها أصناف الأشجار وأنواع الأنوار، وفي وسطها خصات رخامية ظريفة الشكل، وماء النيل يتدفق منها بقوة كثيرة، يخرج الناس إليها للتفسح في العشية، والموسيقى تصدع بالنغمات والألحان المشرقية"[23].

ولما كانت العادة مرتبطة بظروف المجتمع الذي تمارس فيه فهي مرتبطة كذلك بعنصر الزمن وخصوصا بموعد أو مناسبة زمنية معينة، فالعادات مرتبطة بتتابع فصول السنة مثل رأس السنة الهجرية ومولد النبي والاحتفال بموسم الحج، أو ترتبط بمواقف وأحداث معينة في حياة الفرد والمجتمع، وهذا الارتباط بزمن ومكان معينين هو الدليل على القيمة الوظيفية العالية التي تتمتع بها العادات في المجتمع[24].

كما أن العادات الاجتماعية تتغير وتتطور بتغير العناصر المؤثرة فيها، وتتلاقح بعادات جديدة خصوصا بعد تداخلها وامتزاجها بعناصر الثقافات المختلفة، فيتم الانصهار في العادات والطقوس المرتبطة بها، ومن تلك العادات الاجتماعية التي أدخلها الأجانب إلى المجتمع المصري وتركت بصماتها داخله طريقة السلام عند الأتراك، فالتواجد التركي بمصر بدأ عسكريا ثم سياسيا، وما لبث أن توغل الأتراك في المجتمع المصري حتى أصبحوا يشكلون شريحة خاصة بهم تبادلت العادات والتقاليد المختلفة مع المصريين بالإيجاب والسلب، ومن تلك العادات طريقة سلام الترك بوضع اليد على الرأس ثم تقبيلها، وقد سلم الحيوني على أحدهم فقال: "ثم شرع يسلم علينا بحيث أن يجعل يده فوق رأسه ثم يجعلها على فمه، إذ ذاك سلام الترك"[25].

ومن خصائص العادة الشعبية كذلك تمتعها بالثبات وقابليتها للتطور والتغير معا، فالثبات مستمر في جوهره كعادة الاحتفال بالمواسم والأعياد والنزهات، أما التطور فيشمل مظاهر العادة وطقوسها، حيث الاختلاف في مظاهر الاحتفال بفيضان النيل عبر السنين، أو

التطور الحاصل في الغذاء واللباس والعادات المرتبطة بهما مع دخول أصناف جديدة من عادات الطعام واللباس التركي والأوربي والمغربي نتيجة الاحتكاك والتعايش المجتمعي والتأثير الخارجي[26].

وفي هذا الصدد استغرب الغيغائي عادة أكل المصريين في الأسواق رجالا ونساء، واعتبرها ليست سببا في إزالة المروءة عندهم مثل ما هو الحال عليه بالمغرب، حيث أن تناول الطعام في الأسواق والطرقات مما يسقط الشهادة عند العدول، وهذه الممارسات عندهم عادة وحالة مستمرة وهي معاش الغالب، لذا تجد النساء "يأكلن في السوق ولا عليهن في الرجال، وكذلك الرجال يأكلون في السوق جالسين وماشين، ولا عليهم فيمن يراهم أو يرونه، وهذا حالهم شريف ومشروف إلا القليل النادر"[27].

وبذلك تبقى العادات والطقوس المرتبطة بها ظاهرة أساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية الانسانية ومكونا رئيسيا من مكونات التراث الشعبي، وهي حقيقة أصيلة من حقائق الوجود الاجتماعي تؤدي الكثير من الوظائف الاجتماعية الهامة، وتتعرض لعملية تغير دائم بتجدد الحياة الاجتماعية واستمرارها، وهي في كل طور من أطوار حياة المجتمع تؤدي وظيفة وتشبع حاجات ملحة[28].

4. طقوس وعادات الجنائز.

ارتبطت بالوفاة طقوس وممارسات شعبية متداخلة بالمعتقدات التي يؤمن بها المجتمع فيما يتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي، فطقوس وعادات الموت تبدأ بعد الإعلان عن الوفاة مباشرة، حيث تنطلق الاستعدادات اللازمة لاستقبال المعزين والدفن، وتوزع هذه الأعمال على الأقارب والأصدقاء والجيران، ويتجمع الجيران على صراخ سيدات الأسرة ونحيبهم، في حين تبدأ بعض السيدات القادمات في البكاء وهن في الطريق إلى المنزل.

ومن الملاحظ أن الرحالة المغاربة قد أطالوا في ذكر العادات الدينية المصرية وتطرقوا إليها من جميع الجوانب بما في ذلك عاداتهم في الجنائز، فعند وفاة أحدهم خاصة إذا كان من

العلماء تكثر النائحات والقراء، وتخرج النساء مع المتوفين إلى القبور، وقد يدفن بعضهم في جبانات "مقابر جماعية" بسبب كثرة الأموات.

كانت للعلماء مكانة متميزة إذ عرفوا بالدفاع عن أصحاب الحاجات والمستضعفين والنساء، وحينما يتوفى أحد العلماء البارزين يُعلم جميع سكان القاهرة عبر صوت مؤذن الأزهر الذي يشق كبد السماء معلنا بموت أحدهم، وتشاركه أصوات مؤذني الجوامع الأخرى في نعي الفقيد، ثم تجتمع لتلاوة القرآن[29]، ومن عاداتهم في الإخبار بموت أحد العلماء أن المؤذنون يقرؤون في منارات الأزهر وغيره من الجوامع قوله تعالى: "إن الأبرار لفي نعيم" إلى آخر الآية، فيسمعون ذلك ويأتون لحضور جنازة ذلك العالم[30].

وترافق جنائز المصريين بعض العادات الشعبية القديمة، فعندما يتوفى الميت تأتي النائحات الصائحات وتبقى تنوح وراء الميت ليلا ونهارا، والغريب أن ذلك يقع حتى في منازل العلماء مع أن ذلك منكر شرعا وفيه وعيد شديد[31]، ولا تنقطع ولولة المنتحبات ويشاركهن في بكائهن نساء الجوار اللواتي يهبن لمشاطرتهم الآلام[32]، لكن الحيوني أشار إلى أن نواح النساء يكون عند وفاته فقط، ويرافق جنازته في مشهد عظيم جمع من النساء وبعض من الرجال إذ يقول: "نساء مصر لا يصحن على الميت إلا عند خروج روحه فقط، فإذا خرجت سكتن سواء كبر شأنه أم صغر، والنساء هن اللواتي يذهبن مع الميت للقبر والصبيان، وأما الرجال فقليل"[33].

وقد يشارك المارة في الجنازة التي تسير أمامهم، وتسير النساء المولولات خلف النعش جماعات من عشرة أو عشرين وقد غطين شعرهن الأشعث من كثرة الندب بالرأسية، وترافقهن غالبا الناحبات اللواتي ينتحبن ويتباكين مقابل أجر محدد يُدفع لهن وهن يذكرن خصال الميت الحميدة[34].

وللمصريين عادات مختلفة في دفن موتاهم حيث يدفنوهم في جبانات، وهي عبارة عن سرداب تحت الأرض مستطيل الشكل ذا سقف مقنطر مجصص بالآجر عامة، والمدفن مجوف من داخله يسع الكثير من الموتى، فليس لهم قبر لكل واحد بل بيوت تحت الأرض مبنية

معدة لذلك، لكن الأغنياء منهم يشترون بيوتا لدفن أمواتهم بها ويحيطونها بسور ثم يقفلونها، في حين يوضع الفقراء والغرباء في جبانات بعضهم فوق بعض بعد أن تجف جثتهم.

وقد أتيحت للرحالة الغيغائي رؤية هذه الجبانات فقال: "نظرت إلى جبانة قديمة وقد فتح بابها، فإذا الأموات رحمهم الله بعضهم فوق بعض، وهم صغار من اليبس مثل الأطفال بأكفانهم"[35]، ثم نقل هذه الصورة المرعبة إلى بعض علماء الأزهر وسألهم عن دفن الموتى بهذه الطريقة، فأنكروا الأمر وعللوا ذلك بأنه قد يكون من فعل الخدم فقط. غير أن الأمر ليس كذلك فهاته العادة معروفة متواترة في المجتمع المصري حيث يتم رص الأجساد جوار بعضها البعض، وطالما لم يبل لحم الجثة لا ينبغي إزعاج الميت، لكن عندما يبلى ما يغطي العظام فإنها تجعل في لحد واحد[36].

وبعد العودة إلى المنزل تقوم عائلة المتوفى بتهيئة موضع يجتمع فيه الناس لسماع القرآن الكريم، وتجتمع حلقة من الفقهاء يصل عددهم إلى الخمسين في منزل المتوفى لقراءة القرآن، فتنار الأضواء الكثيرة ويكررون هاته القاعدة أيضا ليلة الأربعين وليلة رأس سنة الوفاة، ويحضر من شاء لهذه المراسيم وهو محلى بالثياب المزوقة على أحسن ما يرام ويتلقونه في الباب بغاية الفرح والقبول، ويفرقون على كل من دخل كأسا صغيرا جدا من القهوة، وهناك من يكلف بتوزيع الماء العذب على الحضور، "وفي وسط المجلس كرسي مع الحائط من أحسن الكراسي، عليه طالبان يقرآن القرآن مناوبة بنغمة حسنة، وأهل البلد تسمعهم حينا ينطقون بقولهم الله من غير مراعاة لموضع ذلك، والقاعدة عندهم أن الإنسان إذا دخل لا يخرج حتى يتم القارئ الربع الذي هو شارع فيه"[37].

غير أن الحسن بن الطاهر وعزيز خرج قبل إتمام قراءة الربع مما أثار استعجاب الحضور، ووجد أهل البيت واقفين بالباب لتبادل السلام والتحية مع المغادرين، ثم ذهب إلى جنازة أخرى فوجد فيها مثل ما رأى في الأولى، إلا أنه انتظر القارئ إلى حين إتمام الربع الذي يقرأه، فخرج على الصورة التي وصفها في الأولى، واستدعي لزيارة جنازة ثالثة فشاهد فيها مثل ما

رأى في الأولى والثانية، وبذلك زار في يوم واحد ثلاث جنازات مما يدل على كثرة الوفيات وكثرة السكان.

وجدير بالذكر أن المصريين يحرصون على زيارة قبور الأولياء وحضور المواسم التي تعقد على أضرحتهم، مما يوضح أهمية زيارتها في نفوسهم، علما أنها استوقفت انتباه أغلب الرحالة الذين زاروا مصر، فالعربي المشرفي صرح أن من عادات المصريين "أن ينهون اجتماع الجموع للمواسم في هذا الفصل الخريفي كموسم البداوي والدسوقي المعلومين عند أهل مصر، تفزع الناس إليهما نساء وصبيانا، كهولا وشبابا، رجالا وركبانا"[38]، وهو ما يوضح مدى الانتشار الواسع لأخبار تلك المواسم فالكل يشد الرحال لحضورها.

وقد تحدث عنها الحيوني كذلك محددا الأوقات التي تشهدها والحضور الكبير للناس قائلا: "السيد أحمد المذكور [البدوي] موسمه، قال من رآه يضاهي عرفات أو يفوقها، فله موسمان؛ واحد في المولد وواحد في شعبان، تأوي إليه جميع الفلاحين والعربان الذين بإزائهم"[39]، وزار الرحالة كذلك موسم إبراهيم الدسوقي فوصفه بالقول: "فألقيناه فيه الموسم في شهر شوال، لا قوة إلا بالله ما أعظم وما أكثر ما اجتمع فيه من الخلائق، والبيع والشراء (...)، وهذا الموسم فيه حتى ينسلخ شهر شوال"[40].

ولم تقتصر زيارة الأضرحة على الأحياء بل حتى الأموات كانوا يذهبون بهم إلى زيارة الأضرحة قبل دفنهم، مثل ما يقع في مدينة السويس إذ يقول صاحب اللؤلؤة الفاسية: "ولأهل هذه البلدة اعتناء كبير بزيارة هذا الولي [سيدي غريب]، حتى أن العادة عندهم أن الجنازة لا تدفن حتى يزورونها ضريحه"[41].

ولعل ظاهرة زيارة الأضرحة ظلت راسخة في التاريخ الإسلامي واستطاعت البقاء والاستمرار طويلا بمصر، وخصوصا بالمزارات التي تحمل صبغة مقدسة حيث تعقد فيها القراءات والأذكار المختلفة حسب الأوقات، فمسجد الحسن بالقاهرة جرت العادة بأن يكون غاصا بالزوار كل ساعة لاسيما في طرفي النهار، وكل صبيحة يوم الجمعة تقرأ بردة البوصيري بعد الصلاة[42]، وقد زاره الرحالة محمد بن عبد القادر بن سودة وحضر معهم قراءة

الأحزاب الشاذلية، فشاركهم في القراءة بالتناوب قائلا: "ثم صار كل واحد يقرأ مثل الثمن عندنا، فجاءتني نوبتي فقرأت بلغتهم، غير أني لم أقرأ برواية حفص وإنما قرأت برواية ورش، فتعجبوا من ذلك ومن قراءتي بلغتهم مع أني مغربي، وصار جميعهم يطلب مني الدعاء"[43].

ومن العادات الدينية الحميدة التي كانت لها تقاليد خاصة في مسجد الأزهر حضور العلماء لختم أحدهم تدريس إحدى الكتب الكبرى، من ذلك مثلا حضور علماء الأزهر مجلس الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد المصلوحي الذي ختم صحيح الإمام مسلم[44].

5.خلاصة

تعتبر العادات والطقوس المحور الأساسي في التراث الشعبي، والوعاء الرحب الذي يحتضن كثيرا من المعارف والمعتقدات والفنون والأدب الشعبي، وهو على صلة وثيقة بالجوانب المادية من هذا التراث.

استطاع البحث دراسة بعض مظاهر التراث الشعبي المصري عبر الحديث عن طقوس وعادات دورة الحياة وخصوص عادات الزواج والموت، ثم الاشارة لبعض احتفالات المصريين والعادات والطقوس المصاحبة لها وأماكن انعقادها ودورها في الترفيه عن النفس، خصوصا حينما تقترن بالأعياد الوطنية وتعقد في الحدائق والمتنزهات العامة، وقد استند البحث على نصوص الرحالة المغاربة لاستخراج الاشارات المعبرة عن هذه الطقوس، معبرين في الآن ذاته عن انطباعاتهم ورؤيتهم لهذه العادات.

اتضح بأن الاتجاه إلى الثبات أو الاستمرار في عادات وطقوس الموت أوضح ما يكون إذا ما قورن بالعادات الأخرى كالزواج مثلا، والذي تأثر ببعض المؤثرات الخارجية بسبب الاحتكاك بالأجانب.

6.الهوامش:

[1]– محمود مفلح البكر، مدخل البحث الميداني في التراث الشعبي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سنة 2009، ص 47.

[2]– محمود مفلح البكر، نفسه، ص 32.

[3]– محمد الجوهري، مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري، القاهرة، سنة 2006، ص 41.

[4]– دي شابرول.ج، دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثون، ترجمة زهير الشايب، (د.ط)، جمهورية مصر العربية، 1992، ص 162.

[5] -Rouchdi Fakkar, Aspects De La Vie Quotidienne En Egypte A L'époque De Mehemet - Ali (Première Moitie Du XIX Siècle), Paris, G.-P. Maisonneuve et Larose, 1975, p 89.

[6]– محمد الجوهري، نفسه، ص 82.

[7]– محمد الحيوني، رحلة محمد الحيوني، نسخة بخط أحمد البوزيدي، (د، ط)، (د، ت)، ص 58.

[8]– دي شابرول.ج، نفسه، ص 175.

[9]– محمد الحيوني، نفسه، ص 58.

[10]– محمد الغيغائي، رحلة الغيغائي، كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط،، سنة 2006، ص 207.

[11]– محمد الجوهري، نفسه، ص 41.

[12]– محمد الغيغائي، نفسه، ص 208.

[13]– محمد الغيغائي، نفسه ونفس الصفحة.

[14]– محمد الجوهري، نفسه، ص 56.

[15]– أحمد الصبيحي، الرحيلة الثانية للصبيحي إلى مصر، المطبعة الوطنية، الرباط، 1934، ص 12.

[16]– محمود مفلح البكر، نفسه، ص 78.

[17]– محمد الجوهري، نفسه، ص 238.

[18]– محمد الغيغائي، نفسه، ص 406.

[19]– محمد الجوهري، نفسه، ص 145.

[20]– دي شابرول.ج، نفسه، ص 358.

[21]– محمد الغيغائي، نفسه، ص 215.

[22]– محمد العلمي، رحلة العلمي، المكتبة الوطنية، الرباط، (د، ت)، ص 266.

[23]– الحسن الغسال، الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية، شركة سليكي إخوان للطباعة والنشر والإعلاميات، طنجة، 1998، ص 20.

[24]– محمد الجوهري، نفسه، ص 82.

[25]– محمد الحيوني، نفسه، ص 60.

[26]– محمود مفلح البكر، نفسه، ص 78.

[27]– محمد الغيغائي، نفسه، ص 196.

[28]– محمد الجوهري، نفسه، ص 102.

[29]– دي شابرول.ج، نفسه، ص 527.

[30]– إدريس العبيد أبو العلاء، الابتسام عن دولة مولانا عبد الرحمان ابن هشام، المكتبة الوطنية، الرباط، (د ت)، ص 59.

[31]– عبد القادر السودي، الرحلة الميمونة الغرا في بعض ما شاهدته برا وبحرا، مطبعة رأس الشراطين، فاس، 1350هـ، ص 34.

[32]– دي شابرول.ج، نفسه، ص 528.

[33]– محمد الحيوني، نفسه، ص 59.

[34]– دي شابرول.ج، نفسه، صص 530-531.

[35]– محمد الغيغائي، نفسه، ص 168.

[36]– دي شابرول.ج، نفسه، ص 537.

[37]– الحسن بن الطاهر واعزيز، رحلة إلى المشرق والحرمين سنة 1933م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.1999، ص 234.

[38]– العربي المشرفي، أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط، 2004، ص 251.

[39]– محمد الحيوني، نفسه، ص 13.

[40]– محمد الحيوني، نفسه، صص 12-13.

[41]– عبد السلام العمراني، اللؤلؤة الفاسية في الرحلة الحجازية، كلية الآداب والعلوم الانسانية ظهر المهراز فاس، 2006، ص 99.

[42]– أحمد النميشي، الرحلة الحجازية، منشورة بجريدة السعادة، الرباط، 1933، عدد 25 مارس 1933م..

[43]– عبد القادر السودي، نفسه، ص 35.

[44]– الحسن بن الطاهر واعزيز، نفسه، ص 244.

7.قائمة المصادر والمراجع

– محمود مفلح البكر، مدخل البحث الميداني في التراث الشعبي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سنة 2009.

– محمد الجوهري، مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري، القاهرة، سنة 2006.

– دي شابرول.ج، دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثون، ترجمة زهير الشايب، (د.ط)، جمهورية مصر العربية، 1992.

– Rouchdi Fakkar, Aspects De La Vie Quotidienne En Egypte A L'époque De Mehemet - Ali (Première Moitie Du XIX Siècle), Paris, G.-P. Maisonneuve et Larose, 1975.

– محمد الحيوني، رحلة محمد الحيوني، نسخة بخط أحمد البوزيدي، (د، ط)، (د، ت).

– محمد الغيغائي، رحلة الغيغائي، كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط، سنة 2006.

– أحمد الصبيحي، الرحيلة الثانية للصبيحي إلى مصر، المطبعة الوطنية، الرباط، سنة 1934.

– محمد العلمي، رحلة العلمي، المكتبة الوطنية، الرباط، (د، ت).

– الحسن الغسال، الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية، شركة سليكي إخوان للطباعة والنشر والإعلاميات، طنجة، 1998.

– إدريس العبيد أبو العلاء، الابتسام عن دولة مولانا عبد الرحمان ابن هشام، المكتبة الوطنية، الرباط، (د ت).

– عبد القادر السودي، الرحلة الميمونة الغرا في بعض ما شاهدته برا وبحرا، مطبعة رأس الشراطين، فاس، 1350هـ.

– الحسن بن الطاهر واعزيز، رحلة إلى المشرق والحرمين سنة 1933م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.1999.

– العربي المشرفي، أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط، 2004.

– عبد السلام العمراني، اللؤلؤة الفاسية في الرحلة الحجازية، كلية الآداب والعلوم الانسانية ظهر المهراز فاس، 2006.

– أحمد النميشي، الرحلة الحجازية، منشورة بجريدة السعادة، الرباط، 1933.